

محاوّر حول المنهج البنوي

◆ د.عبدي حاجي / جامعة دهوك

إنّ الاقتراب من إستراتيجية مثل المنهج البنوي يحاذي الخطورة، نظرا لتلك التشعبات التي تفرعت عنها البنوية كطريقة لممارسة الفكر النقدي لدى الإنسان الغربي. فقد حاولت البنوية وضع قاعدة علمية للدراسات الأدبية أسوة بتلك الدراسات التي تتم في أطر العلوم الطبيعية، وهذه يعني استبعاد الذاتي والشخصي عنها. يقول كلود ليفي شتراوس (إن البنوية تريد أن تكون منهجا علميا دقيقا، يماثل المناهج المتبعة في العلوم الدقيقة، يدرس العلاقات القائمة بين عناصر أجزاء كل بنية، وذلك بالكشف عن هذه الأخيرة والكشف عن ارتباطاتها الموضوعية، ثم إعادة تركيبها في منظومة كلية جديدة أسمى من بنياتها الأولى، تتيح لنا تبين بنيتها الخفية)1.

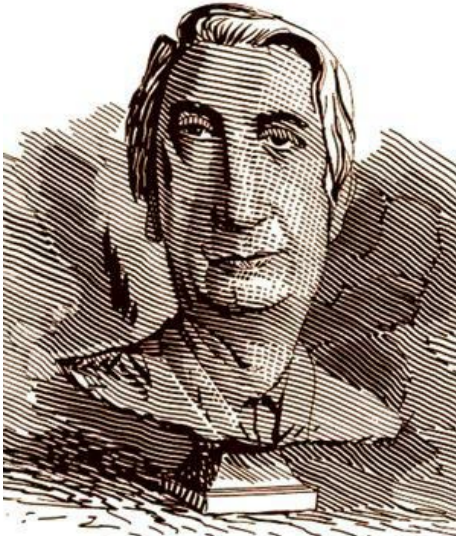
من المصادر التي استمدت البنوية قوتها ومنهجيتها بشغل عمل فرديناند دي سوسير العالم السويسري (1857-1911م) الصادرة. هذا العمل الموسوم (علم اللغة العام) يعد المرجع الأساسي للفكر البنوي. وأهم ما جاء فيه هو دراسة اللغة دراسة تزامنية وليست تعاقبية، وتمييز بين اللغة والكلام. ويمكن القول إن ما قام به سوسير وما قدمه من طروحات يوازي انقلابا فكريا وفي الألفية الحديثة لاسيما أكد على أن اللغة منظومة لا قيمة لمكوناتها أي لعلاقاتها اللغوية إلا بالعلاقات القائمة فيما بينها، وبالتالي لا يمكن للألسني اعتبار مفردات لغة ما كيانات مستقلة بل يصير لزاما عليه وصف العلاقات التي تربطه مع هذه المفردات.

والمصدر المهم الآخر للبنوية هو المدرسة الشكلانية الروسية وما قدمته من طروحات ورؤى جديدة في مقارباتها للنصوص الأدبية، وتشديدها على القطعية مع المرجع الخارجي. لقد ظهرت هذه المدرسة كاتجاه أدبي في أوائل القرن العشرين، الذي كان يضم جمعية دراسة اللغة الشعرية وحلقة موسكو اللسانية. لقد

ينصبُّ الاهتمام
في هذا المحور من
الدراسة حول المنهج
البنوي بوصفه
مذهباً فكرياً انتشر
في أوروبا في القرن
العشرين، كما
سنتوقف عند تلك
المصادر الرئيسية
التي مهدت السبيل
أمام نشأة البنوية
في فرنسا واستمدت
قوتها منها.

كانت الدراسات العلمية تبحث عن منهج علمي رصين يدفع عن النقد الأدبي تهمة الذاتية ويضفي عليه الطيبة العلمية، بحيث يصبح النقد الأدبي علما. ووجد النقد الأدبي ما كان يبحث عنه في الأنموذج اللغوي واللساني وفي التطبيق الأنثروبولوجي لدى ليفي شتراوس، الذي شيد أنموذجه على أطروحات ياكوبسون البنوية والشكلانية. كتب ليفي شتراوس يقول (ففيما يتعلق بالعلوم الاجتماعية فإن فقه اللغة البنوي سيلعب بالتأكيد نفس الدور التجديدي الذي لعبته، مثلا، الفيزياء النووية في العلوم الطبيعية).³ وهكذا فإن البنوية تشمل ميادين عديدة مثل الفلسفة، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، واللغة، والنقد الأدبي. وما يهمننا في هذا الشأن هو المنشا الذي استفاد منه النقد الأدبي، ذلك وهو يعود إلى مجال اللسانيات أو البحث اللغوي. وقبل شرح مفاهيم البنوية ومقولاتها لابد من تحليل لفظ البني، ذلك أن كلمة البنوية على صلة وثيقة بكلمة البنية.

إن كلمة بنية (structure) مشتقة من الفعل اللاتيني (struere) والذي يعني البناء والتنظيم، أي الموضوع المنتظم له صورته الخاصة ووحدته



ميشيل فوكو

وضع الشكلانيون الروس أسسا لثورة منهجية جديدة في دراستهم للغة والأدب، حيث كانوا يسعون إلى إنشاء علم أدبي مستقل يقطع كل صلة بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمجتمع ما، الأمر الذي كان النقد يؤسس عليها فيما مضى. وكان رومان ياكوبسون رائدا في هذا المجال، حيث حاول تخليص الدراسات النقدية من تأثيرات العوامل الخارجية خلافا للمناهج الأخرى التي كانت تربط الأدب بحياة الكاتب الشخصية وبعلم النفس والسياسة والفلسفة، وتاويلها انطلاقا من النصوص الأدبية حصرا. ويرى الشكلانيون أن هذه المسائل هي موضوعات لعلوم أخرى، وعمقوا بذلك أفكار القطيعة مع ما هو خارج الأدب. وهذا ما أكدت عليه أيضا المدرسة البنوية التي استفادت كثيرا من تراث سوسير والشكلانيين الروس. يقول كلود ليفي شتراوس (إنني أؤكد على أن البنوية الحديثة ومن ضمنها اللسانيات البنوية، ما هي إلا امتداد للشكلانيين الروس)².

لقد استندت المدرسة الشكلانية في تنظيراتها وتطبيقاتها إلى فرديناند دي سوسير والعالم الروسي-البولوني بودوين دي كورتيني (1845-1929م) الذي وضع تصورا عن اللغة بوصفها نظاما أو نسقا، ترتبط عناصرها فيما بينها بعلاقات مختلفة. هذه التنظيرات والتطبيقات مهدت السبيل أمام انبثاق الفكر البنوي في الفضاء الفرنسي ففي فرنسا ازدهرت البنوية في الفكر الأنثروبولوجي ليفي شتراوس وذلك بدءاً من منتصف الأربعينات وفي أوائل خمسينيات القرن العشرين، عندما قام بدراسة أساطير القبائل في جنوب أمريكا ووسطها، وفي الفلسفة لدى ميشيل فوكو، أو في الفكر النفسي كما تبدو في أعمال جان لكان وغيرها من الحقول. أما في الإطار الأدبي فقد وجدت البنوية تعبيراً لها في أعمال تزفيتان تودوروف، ورولان بارت، وجوليا كريستيفا وغيرهم.

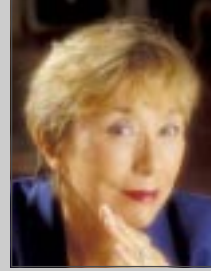
الكتب والدراسات النقدية التي تتناول هذا الموضوع نرى أن معظمها تكاد تجمع على أربع وحدات لتعريف البنية وتحديدها. وهذه الوحدات هي القانون أو النظام والعلاقات والعناصر والتماسك. ولكل نص بنية، وقد تتضمن هذه البنية جميع شروط الإبداع، وقد تكون بنية مهلهلة. ونورد المثال التالي للالسني الفرنسي جورج مونان، وهو مثال طاولة مصنوعة من خشب أبيض، إن تحليل بنية هذه الطاولة إنما هو البحث عن الوحدات الحقيقية التي تكونها، ثم تفكيكها قطعة قطعة بحيث نتمكن من إعادة جمعها كطاولة/.../وهكذا نجد أولاً أربع وحدات وهي الأرجل، وأربع وحدات أخرى تشكل الإطار، ثم وحدة أخرى هي الطاولة في حد ذاتها، فضلاً عن الوحدة الأخيرة المكونة للجرار... وأن يكون هناك بنية فهذا يعني وجود انتقاء في ترتيب الوحدات. ولكن ما هو معيار هذا الانتقاء؟ إنه الوظيفة التي هي مفهوم جوهرية في الأسنوية البنيوية... وفي الواقع فإن ما يميز أرجل الطاولة مثلاً ليس مادتها (خشب، حديد، ألمنيوم...) ولا شكلها في حد ذاته. لنفترض أن حادثاً ما حرم الطاولة من إحدى أرجلها، فبوسعي إبدالها بقضيب معدني، أو برجل منضدة من طراز لويس الخامس عشر أو بعضاً مكنسة الخ...

إن الوظيفة الجمالية، إن كانت هناك وظيفة، ستغير دون شك، أما وظيفتها الأولية والمركزية كطاولة باقية على حالها. إن الوحدات تتميز أولاً بحسب وظائفها (الوظيفة - الرجل، الوظيفة - الإطار، الوظيفة - الجرار) 5. من هذا المثال الذي عرضناه نرى أن للطاولة وظيفة وهي أنها تستخدم لشيء ما. فقد نستطيع الكتابة عليها، أو القراءة، وقد نستخدمها للطعام وغير ذلك، وما يميزها إنما هو هذا الاستخدام أي الوظيفة التي تقوم بها وليس مادتها وشكلها.

خالفاً عن اللغة الطبيعية فإن عناصر بنية النص الأدبي تكتسب دلالة خاصة، فلا يعود الليل،



جاكسون



جوليا كريستيفا



رونالد بارت

الذاتية.

وانطلاقاً من هذا المفهوم أصبحت الكلمة تعني الكيفية التي تنتظم لها عناصر مجموعة ما، أي إنها تعني مجموعة من العناصر المرتبطة فيما بينها، بحيث يتوقف كل عنصر على باقي العناصر الأخرى.

وبصفة عامة فإن البنيوية تولي اهتماماً كبيراً للعلاقات القائمة بين عناصر البنية أكثر من عنايتها بالعناصر ذاتها، (ينطلق التحليل البنيوي للأدب من حقيقة أن الطريقة الأدبية ليست عنصراً مادياً في النص، بل هي موقف) 4.

وعلى هذا النحو فإن البنية تعني النظام والبناء وان بنية العمل الأدبي هي تنظيم خاص للعلاقات المتبادلة بين عناصر النص الأدبي. وإذا ما تابعنا تعريفات البنية ومفاهيمها في

بل إن قيمته تكمن في مقدار ما يسهم في بناء المجموعة من خلال علاقاته بغيره. والأهم هو العلاقة التي تسود بين الأجزاء وتحدد النظام الذي يتبعه الأجزاء في ترابطها، والقوانين التي تنجم عن هذه العلاقة وتسهم في بنيتها في الوقت ذاته. فكل بنية هي لا محالة مجموعة علاقات تتبع نظاماً معيناً مخصوصاً. وهكذا تحول المنهج المعرفة (من محاولة معرفة (ماهية) الشيء إلى كيفية ترابط أجزائه وعملها مجتمعة)6، ويمكن لنا أن نضرب مثالا في هذا الشأن وهو العنوان في النص الأدبي، الذي يؤدي دورا وظيفيا خطيرا من خلال علاقاته بالقارئ وفي الوقت ذاته بالنص.

تظهر الدراسات والمقاربات التي أجريت على المنهج البنوي، أنه يستند إلى ثلاث قوانين أساسية هي قوانين البنية ذاتها، أما هذه القوانين حسب جان بياجيه فهي: قانون الكلية، وقانون التحول، فماذا تعني هذه السمات التي تتم بها البنيات الخاصة.

أما القانون الثاني فهو قانون التحول. لا تظل البنية على حالة واحدة، أو في حالة سكون، فلا بد من تغييرات تطرأ عليها. فقاعدة التحول هي الوسيلة التي تجعل أحد الأنظمة يقبل عناصر جديدة أو يستبعداها. إن استبعاد عنصر جديد يتضمن عادة بقاء البنية على وضعها الراهن، بينما إن من المرجح أن قبوله يحتاج إلى إعادة ترتيب لعناصر النظام طبقا لقوانين العلاقة والتعارض الخاص. وحسب شتراوس فإن على البنية أن تتمتع بخاصية المنظومة أي أن تتكون من عناصر يؤدي أي تغيير في أحدها إلى تغيير في عناصر أخرى.

والقانون الثالث الذي يعرف بالضبط الذاتي أو التنظيم الذاتي، فيقول بأن للبنية القدرة على أن تكون مكتفية بذاتها، بمعنى أنها مستقلة عما خارجها وبالتالي تعتمد على نفسها في تحقيق هويتها.

والبنوية حسب تعريف ليونارد جاكبسون هي (القيام بدراسة ظواهر مختلفة

مثلا، وقتا للنوم وخلودا إلى الراحة في قصائد عدد من الشعراء وحسب، بل وقتا لظهور قوى الفوضى المرعبة بصورة مكشوفة، وإشارة إلى موقف خفي وعاطفي يجري فيه لقاء بين البطل والبطلة.

البنية إذن هي مجموعة من العلاقات الداخلية التي تميز مجموعة ما بحيث تكون هناك أسبقية لكل على الأجزاء، أي أن أي عنصر من البنية لا يتخذ معناه إلا بالوضع الذي يشغله داخل المجموعة، وأن الكل يبقى ثابتا بالرغم مما قد يطرأ على عناصره من تغيير.

تظهر الدراسات والمقاربات التي أجريت على المنهج البنوي، أنه يستند إلى ثلاث قوانين أساسية هي قوانين البنية ذاتها، أما هذه القوانين حسب جان بياجيه فهي: قانون الكلية، وقانون التحول، فماذا تعني هذه البنيات الخاصة.

بالنسبة للكلية أو القانون الأول، فإن البنية تتشكل من عناصر متماسكة لكل دور منها في هذا الشكل، وتكون البنية حصيلة إسهام هذه العناصر جميعا، وليس لهذه العناصر أو المكونات البنوية من أهمية خارج النسق العام، بل أنها تأخذ قيمتها ووظيفتها عبر علاقاتها مع العناصر الأخرى، بذلك فإن قيمة العنصر في داخل البيئة هي التي تتهم المنهج البنوي. والعناصر الموجودة في البنية تنخضع للقوانين المميزة لهذه البنية، التي لكل منها أولوية مطلقة على هذه العناصر. ويتم تشكيل البنية نتيجة العلاقات التي تتكون بين هذه العناصر، وطبيعة هذه العلاقات التي تفوق في أهميتها العناصر ذاتها، بل هي أهم من الكل بوصفه كلاً، فليس للعنصر في البنية قيمة بذاته.

سكونيتها. يقدم سوسير النموذج التزامني الذي يرى اللغة في علاقاتها بالثقافة ونشاطاتها في لحظة زمنية واحدة بديلاً من النموذج التعاقبي الذي فضله دارسوا اللغة. وحسب سوسير فإن كل شيء يتعلق بالجانب الثابت لعلم اللغة إنما هو تزامني، وكل شيء يتعلق بالتطور إنما هو تعاقبي.

والتزامن هو دراسة حالة اللغة بوصفها نظاماً أو نسقاً لعناصر مرتبطة فيما بينها في لحظة معينة من تطورها. والدراسة التزامنية للغة هي موضوع علم اللغة الوصفي، إذ أن اللغة لا تمثل مجموعة وقائع، بل نظاماً لعناصر مترابطة فيما بينها. ويحدد تركيب هذه العناصر وطبيعتها علاقاتها خصوصية كل لغة في مختلف مستوياتها (في الصوتيات والقواعد والتراكيب).

أما التعاقب فهو دراسة العلاقات بين عناصر متعاقبة خلال تطور اللغة وهو يعني دراسة تطور اللغة تاريخياً. فاللغة تكون في حالة تطور وتغيير دائم، وتحتفي ظواهر لغوية وتظهر أخرى، هذه الظواهر اللغوية التي لا توجد منعزلة عن بعضها البعض، بل توجد في نظام لغوي متكامل (فالتزامن هو الدراسة في فترة من الزمن يكون فيها المجموع الكلي للتغييرات الحاصلة ضمناً جداً ينحصر في الحدود الدنيا، أما التعاقب فهو دراسة العلائق بين عناصر متعاقبة يحل فيها كل عنصر محل العنصر الآخر بمرور الزمن)8.

التركيب/الاستبدال:

نقصد بثنائية التركيب-الاستبدال محور العلاقات التركيبية للبنية اللغوية ومحور العلاقات الاستبدالية. يتسم المحور التركيبي بالصفة الخطية بمعنى أن العلاقات اللغوية المركبة في النسق اللغوي تتألى وراء بعضها زمنياً. مثال: الفتاة الشابة تحب الفساتين الحمراء. في هذا النسق تحدد العلاقات التركيبية بالمستوى النحوي الذي تنتظم فيه الكلمات، مبتدأ، صفة، فعل مضارع، مفعول به الخ. من ناحية، ومن ناحية

كالمجموعات، والعقول، واللغات، والأساطير، بوصف كل منها نظاماً تاماً، أو حلاً مترابطاً، أي بوصفها بنى، فتتم دراستها من حيث أنساق ترابطها الداخلية، لا من حيث هي مجموعة من الوحدات أو العناصر المنعزلة ولا من حيث تعاقبها التاريخي)7.

مقولات البنيوية:

يتكأ الفكر البنيوي على جملة مفاهيم وثنائيات، وإذا كانت فكرة البنية هي المقولة الأساسية في هذا النشاط النقدي، فإن البنية تشتغل حسب الثنائيات الآتية:

1- اللغة / الكلام

2- التزامن/التعاقب

3- التركيب/الاستبدال

يبدأ فرديناند دي سوسير عمله الموسوم (علم اللغة العام) بتعريف اللغة ذاتها، فاللغة حسب تعريفه، هي منظومة إشارات تعبر عن أفكار، ولذلك يجري مقارنتها بنظام كتابة الألف باء الصامته، الطقوس الرمزية، والإشارات العسكرية وغيرها. أما الكلام فهو الاستخدام الفردي لهذه الرموز. فالكلام هو تجسيد للغة التي تكشف عن نفسها في الكلام وحده ومن خلاله يؤدي رسالته الاتصالية، حسب تعبير سوسير فعل فردي وعقلي مقصود.

الثنائية المهمة الأخرى التي جاء بها سوسير هي ثنائية التزامن والتعاقب. إن هذه الثنائية هي التي ميزت البنيوية بشكل خاص. فالدراسة التزامنية للغة ما تعني دراسة نظامها اللغوي الثابت في لحظة معينة من الزمن دون أن تكون هذه اللحظة الآن بالضرورة والتزامن هو النظر إلى الظاهرة بعيداً عن التاريخ، وقراءة شيء ما سكونياً لا علاقة له بالتغيير. ومن هنا يمكن القول أن التزامن يفرض الثبات وينفي الحركة، ويرتبط بما هو ناجز ومكتمل. لقد استندت البنيوية على التزامن، أي أنها استندت على قراءة الظاهرة في

بين الدال والمدلول هي علاقة اعتباطية عشوائية، وبمعنى آخر لو كانت العلاقة طبيعية لما كانت هناك لغات متعددة بل لغة واحدة في العالم. أما العلاقة بين الدال والمدلول فهي ضرورية حسب بنيغست الذي جدد في الفكر اللساني لدى سوسير أن اعتباطية العلاقة اللغوية هي التي تحميها من التغيير.

إل انه طرأت تحولات على البنوية نتيجة نقد شديد خارجي وداخلي، جاءها من الوجودية والماركسية وكما يقول د. الزواوي بغورة، عندما كشفت البنوية عن محدوديتها في معالجة التطورات العلمية ولا سيما التطور في مجال اللسانيات وأثره في العلوم الإنسانية.

إن الأحداث التي عصفت بفرنسا وأوروبا وأمريكا في نهاية الستينات، تلك الأحداث التي عرفت بالطلابية قد نالت من الجميع وأطاحت بالماركسية والوجودية والبنوية، وظهرت تيارات جديدة سميت ما بعد الحداثة وما بعد البنوية والتي قادها مفكرون كانوا بالأمس من دعاة البنوية (واستحدثوا أشكالا فلسفية جديدة كالجنالوجيا عند فوكو والتفكيكية عند جاك دريدا وفلسفة الاختلاف عند جيل دولوز، وما بعد الحداثة عند ليونارد)...9

أخرى هناك التلاؤم الدلالي بين هذه المفردات، مثلا لا يمكن أن نقول إن الفتاة الشابة تاكل الفساتين، بل يمكن القول الفتاة اليافعة تحب الفساتين. أما العلاقات الاستبدالية فتعني قدرة البنية اللغوية على الاستبدال بين العناصر في النسق ذاته. في المثال المذكور نستطيع أن نغير أي من المفردات التركيبية سواء بالتماثل بين المفردات أو بالتناقض الذي يبرز في الكتابة الشعرية.

القيمة والوظيفة:

لا يمنح النشاط البنوي لأي عنصر قيمته إلا من خلال البنية. وبمعنى آخر إلا من خلال عمله في البنية. والوظيفة حسب فلاديمير بروب صاحب كتاب (مورفولوجيا الحكاية الخرافية) (هي الفعل الذي تقوم به الشخصية لتحديد أهمية مجرى الحدث).

إن العلاقة في الفكر اللساني البنوي يجري النظر إليها بوصفها تتكون من عنصرين هي الدال والمدلول، فالعلامة البنوية بين مفهوم الشجرة (المدلول) والصورة الصوتية التي يتطلبها نطق كلمة الشجرة (دال) تؤلف علامة لغوية. ولا يرتبط الفكر البنوي بين العلامة والعالم (المرجع) دائما. ويرى إن العلاقة بين العلامة والعالم أي

الهوامش

- 1- عالم الفكر، الكويت، المجلد 3، أبريل-يونيو 2002، العدد 4، ص 47-48
- 2- عالم الفكر، المجلد 3، أبريل-يونيو 2002، العدد 4، ص 45
- 3- من كتاب ميجان الرويلي، قضايا نقدية ما بعد البنوية، الرياض، 1966، ص 39
- 4- يوري لوطمن، تحليل النص الشعري، لينفرا، 1972، (ص 24 بالروسية)
- 5- يوسف غازي، مدخل إلى الألسنية، ط 1، دمشق، 1985، ص 92-93
- 6- د. ميجان الرويلي ود. سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، بيروت لبنان، ط 3، 2002، ص 68
- 7- ليونارد جاكسون، يؤس البنوية، ترجمة: نائل ديب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2001، ص 47
- 8- عبد الله إبراهيم سعيد الغانمي، عواد علي، معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط 2، 1996، ص 45
- 9- الزواوي بغورة، البنوية منهج أم محتوى، عالم الفكر، المريد 3، أبريل-يونيو، 2002، العدد 4، ص 64.